المجموعة الصوفية الكاملة "لأبي يزيد البسطامي" تكشف الخلل في نصوص كتاب عبدالرحمن بدوي "شطحات صوفية"

دمشق / محمد أحمد طيارة

> الشوق قصبة مملكة المحبين، فيها عرش عذاب الفراق منصوب، وسيف هول الهجران مسلول، وغصن نرجس الوحدة على كف الأمل موضوع، وفي كل آن يطيح السيف بألف من الرقاب، قالوا: ان سبعة آلاف من السنين قد مضت، ولكن النرجس لا يزال غضاً طرياً لم يصل اليه كف أي أمل بعد.

بهذه الشذرة الصوفية يسعى الكتاب الصادر مؤخراً عن دار المدى بدمشق تحت عنوان "المجموعة الصوفية الكاملة لأبي يزيد البسطامي" الذي قام بتحقيقه قاسم محمد عباس إلى تقديم رؤية تفصيلية محققة للبسطامي، عن طريق اقتراح جمع كتاباته الصوفية التي تتركز في مساحة كبيرة منها في النص الشطحي الذي انتشر في البيئة الصوفية الإسلامية في القرن الثالث الهجري، واهتم الكتاب بتقديم موقف ابستمولوجي عن مفهوم الشطح، وعرض خصائص هذا النص الذي يرتبط بمضاعفات اللغة الصوفية ونظمها وبنيتها، عن طريق فحص علاقة هذا المفهوم بمحددات فكرة التأويل التي أنتجت بشكل أو بآخر جانباً فعالاً من المعرفة الإسلامية، وكشفت عن تجليات البناء المعرفي للظاهرة الصوفية.

تتوزع الرؤية المقترحة على تحليل مفهوم الشطح ومحاولة كشف محدداته الجوانية وموقعها في التجربة الصوفية، فقد بدا من المتعثر تقديم ترث هذا الصوفي الذي يعد الجذر الأول للمشروع الصوفي في الإسلام، وكانت نصوصه الحقل الذي نشأت فيه مباني العقيدة الحلاجية، نقول: بدا من المتعثر أن تقدم النصوص دون محاولة فهم حركة ظهور هذه النصوص، بسبب أن مزاعم الفهم المتداول أبقت النظر في نص البسطامي خارج مكوناته المعرفية، فذهبت بمقاصده نحو فكرة أن النص نتاج خيال شعري يمكن التعامل معه من زاوية تأملية نستطيع أن نفرضها على أي نص لغوي للكشف عن مقاصده، ومعرفة أسباب التفكير داخله.

ويثبت المحقق بعض دوافع هذا الكتاب حول ترث البسطامي الذي بقي متاحاً للدراسات تأثر بنصوص مقتطعة، وقدمت هذه النصوص تحت عنوان الشطح الصوفي، كما هو الحال في كتاب عبد الرحمن بدوي "شطحات صوفية" الذي أسهم في إشاعة تصور نفسي انفعالي عن هذه النصوص التي كتبت حقيقة طبقاً التجربة صوفية عنيت بالوجود بمجمل طبقاته، وقدمت نظريتها المعرفية ضمن مفاصل المسلك الصوفي الذي تحدى الشرع بنص بديل يتصل بجوهر الشرع ذاته، لينتشر كتاب بدوي بوصفه الوثيقة المتفردة عن هذا الموضوع، فكيف والحال هذه لو عرف القارئ أن الكتاب الذي نشره بدوي ليس هو الكتاب المقصود، بسبب أن كتاب شطحات الصوفية الأصلي لا وجود له على الإطلاق، هذا لو استثنينا مخطوطاً وحيداً يقترب من فكرة كتاب بدوي لم يزل يغطيه التراب في إحدى مكتبات بغداد.

ويبين المحقق ان الكتاب الذي قدمه بدوي اعتمد على مخطوط يتناول ذكر مناقب البسطامي وشذراته وأقواله فقط، ولا علاقة له بشطحات الصوفية، ولم نعرف لم غير بدوي اسم الكتاب واختلق له تسمية من خياله، بينما المخطوط الذي أشرنا إليه يتناول معظم شطحات الصوفية لم يزل مخطوطاً، وبقدر تعلق الأمر بكتابنا هذا، فإننا ألزمنا بمراجعة كل هذه الملابسات، فراجعنا المخطوطات التي اعتمدها بدوي أولاً وقابلناها بكتابه المطبوع فصدمنا للمسافة بين المخطوط والمطبوع، ودهشنا للجناية التي ارتكبها بدوي بحق البسطامي، فمنها ما يتعلق بتلك القراءة الناقصة للنصوص، والنواقص التي تجاوزها بدوي بقلب شجاع من جهة، والاخفاق الكبير في ترشيح النص الكامل، الذي كان من الممكن الوصول إليه عن طريق المقابلة بين النصوص من جهة ثانية، وكان لابد من جمع كل المخطوطات التي ورد فيها ذكر البسطامي، فضلاً عن المخطوط الذي اعتمده بدوي، وعند اكتمال المصادر المتعلقة بآثار هذا الصوفي استخرجنا كل الشذرات والشطحات، وقمنا بالمقابلة بين النسخ التي حصلنا عليها، فتوصلنا إلى مجموعة صوفية نادرة أضاءت لنا اللحظة البسطامي الصوفية، فاقترحنا شكلاً لهذه الشطحات ينسجم والسياق الصوفي المتعلق بالبسطامي، من خلال التنبه للبنية الكاشفة هذه.

وقد رتب المحقق أجزاء الكتاب طبقاً لموقع النتاج الصوفي في سياق الثقافة الإسلامية في عصر البسطامي فمراعاة طبيعة الترتيب قد يشكل خطأ قراءة هذا النتاج، فجاء ترتيبنا لنطاق مادة الكتاب وفقاً لهذه النظرة.

وتناول في الجزء الأول من المقدمة مفهوم الشطح بالتحليل والتأصيل، وتحدثنا في الجزء الآخر عن فكرة الكتاب وعلاقتها بمشروع بدوي المختلق، ولم يتأثر موقف الكتاب بهذا الموضوع لولا أننا حاولنا أن نشير إلى كتاب بدوي بقدر علاقته بفكرة تقديم النصوص الكاملة للبسطامي ومن هنا وجدنا ضرورة الكشف عن حقيقة كتاب بدوي.

إن هذا الكتاب قد نشد إلى مقترح توفير وثيقة تتضمن كل نصوص البسطامي، تلك النصوص التي أثبت التحقيق نسبتها إلى البسطامي، فأبعد المحقق مجموعة - وهي قليلة لحسن الحظ - من هذه النصوص عن متن الكتاب لكونها لا تنتسب إلى البسطامي، ومعظمها قد ورد في كتب التصوف المتأخرة، ففضلنا اعتماد كبريات المصادر الصوفية بين مخطوط ومطبوع لترشيح مادة هذا الكتاب، فخلصنا إلى مجموعة رائعة من النصوص الشطحية تشكل متن الكتاب الذي لا غنى عنه عند قراءة القرن الثالث الهجري قراءة صوفية كونه يتضمن كل نتاج البسطامي، وألحقنا كتاب (شطحات الصوفية) الأصلي بآخر الكتاب، بعد أن قمنا بتحقيقه على نسختين فريدتين، وبذلك نكون قد قدمنا كل ما له علاقة بالشطح من جهة، وكشفنا عن مخطوط نادر ونفيس له تأثير مباشر في دراسة الشطح من جهة ثانية، وفضلاً عن ذلك أننا بعملنا هذا نكشف عن اللبس الذي تسبب فيه عبد الرحمن بدوي، وربما حققنا له في الوقت نفسه رغبة قديمة كانت تداعب خياله لزمن طويل وهي اصدار كتاب شطحات الصوفية الأصلي.

الشطح

التجربة ودلالة المعنى المزدوج

تشكل المغامرة الصوفية في الإسلام الجوهر الأساس الذي دفع التفكير الإسلامي إلى منطقة البحث المؤثر عن المطلق، ونموذج هذه المغامرة هو الصوفي الذي تقترب صورته من صورة الرومانسي الحالم في المخيال العام، الذي يتعامل مع هذا النموذج بفهم أنه يحيا خارج الذات، وخارج حقائق العالم.

والتصور الإسلامي العام، هو ذلك التصور الذي منح ذاته جوهراً يحلل من خلاله الديني والزمني والابتعاد عن أية مغامرة يصعب احتواؤها من جهة، والتصدي لأي خطاب معاكس من جهة ثانية، ليترتب على ذلك شيوع تصور تفسيري ملتبس أخذ به التصور الإسلامي العام وهو بصدد تأويله لثقافته الخاصة.

إن انتشار صفة الرومانسي الحالم كمرادف للصوفي، لم يستطع إلغاء حقيقة أنه لم يكن حالماً أبداً... إنه المثل الوحيد في الإسلام للفكر الواقعي، وهذا الفكر في حقيقته جهد صادق من المطابقة بين التجربة والقول... وقد نبه روجيه ارنالديز إلى فكرة أن صوفية الإسلام قد كشفوا عن العمى الذهني وهم يواجهون المشاكل الفلسفية الحقيقية، وأشار إلى أن فكر الصوفية قد تطور في لاواقعية واضحة، بسبب أن ما يلفت انتباه الصوفية في أثناء بحثهم ليس الوجود وخفاياه، وإنما المصاعب التي يضعها أمام عقليتهم هذا النص لأفلاطون، وذلك النص لأرسطو، أو مفاصل الخلاف بين نظمها المنظور إليها في إطار التجريد، بفهم أنها أنظمة مغلقة، انعزلت عن الوسط الذي ولدت فيه..

لقد أثار الشطح لبساً كبيراً حول اللغة الصوفية عموماً، وضاعف من تعقيد الساحة التقنية للاصطلاح الصوفي، ففي حال عرض الاصطلاح على المعاجم العربية فإنها لا تكشف لنا حقيقة عن تفصيل دقيق للكلمة...

والشطح في لغة العرب هو الحركة، يقال: شطح يشطح إذا تحرك، فالشطح لفظة مأخوذة من الحركة، لأنها حركة أسرار الواجدين إذا قوي وجدهم، فعبروا عن وجدهم ذلك بعبارة يستغرب سامعها..

ومن خلال التعريفات التي أشرنا إليها آنفاً يتوفر أن تحدد مدلول التلقي الذي يقوم على محددين أساسين، الأول: ارتباط فكرة الشطح بفكرة (الدعوى)، والثاني: إن شكل التعبير محكوم بالغرابة والغموض إلى حد بعيد لعدم مطابقته لمعرفة المتلقي أو لعدم إمكانية مقايسته مع أي منهج أو مفهوم لدى العرف الديني للمتلقي، وسنعالج فكرة الدعوى في ما بعد بسبب اعتقادنا أنها تشكل أحد أهداف الشطح...

حول التصور السابق دارت مواقف الصوفية في القرنين الثالث والرابع الهجريين، والبؤرة الأساسية التي تم تحديدها لفهم الشطح تتركز في (المفارقة الإلهامية)، لأنها الوحيدة التي توفر لنا فرصة فهم مبالغات الصوفية...

إن صدور الشطح عن الصوفي بفعل حركات تثير أعماقه اللحظة، وعندما يزداد عنف الشطح باجتياح أنوار التجلي لهذه الأسرار سيدخل الشطوح وعياً (ما فوق شخصي) يتمظهر على شكل تصريحات وكشوفات، في الوقت الذي يتخلل عقله في أنوار الإلهام الذي أقامه، ليشتعل بنيران الرغبة الجامحة في المحبوب السرمدي على الرغم من وصوله إلى رؤية الحجاب الموضوع على عتبة الجلال كما اصطلحت الصوفية.

يعد البسطامي من مؤسسي مدرسة الشطح في الإسلام، كان جده زرادشتياً واتفقت المصادر التي ترجمت له على هذا النسب: طيفور بن عيسى بن آدم بن سروشان من بسطام إحدى مدن إقليم قومس في الجنوب الشرقي لبحر الخزر طبقاً لمتابعة المستشرق رينولد نيكلسون، لم تفصل المصادر التي ترجمت للبسطامي في تفاصيل حياته وتلخصت المعلومات التي ذكرت في قضية جده الزرادشتي، وصراعه مع السالية، وخروجه من بسطام أكثر من مرة بسبب ذلك الصراع، ومن ثم تحدثت المصادر عن بقائه ببسطام وتثبيت سنة وفاته بسنة 261هـ.

كانت هذه المعلومات المقتضبة هي الانعطافات التي تتوقف عندها المصادر دون أن تفصل في طبيعة كل منها، ولا يتوفر لنا الجزم بما ذكرته المصادر الفارسية المتأخرة عن طفولته، بسبب أنها تشكل في مجالها النهائي صياغة متأخرة لفكرة بطل التصوف الفارسي، الذي ألهب خيال شعراء فارس وصوفيتها، بسبب انحداره عن الأصل الفارسي، ولا يمكن حقيقة أن ننكر تلك النزعات التي اجتاحت فكر البسطامي ليقوم ببثها في فضاء الثقافة الإسلامية، فنقلت لنا بتلك اللغة التي تقترب من لغة الشعر المناخ الشرقي وأخلاقياته الروحانية، ولكن أفكاره ومواقفه احتوت الكثير من خصائص الفكر الهندي والفارسي واليوناني، وكان للبسطامي بحق ذلك الثيوصوفي الهلليني الذي هيأ الأرضية المناسبة لظهور الحلاج. ورغبة من المحقق في إتمام الفائدة واستكمال الأدلة على ما ذهب إليه ألحق كتاب (شطحات الصوفية) الأصلي المسمى ب (الفتح في تأويل ما صدر عن الكمل من الشطح) بآخر الكتاب ليتبين القارئ المشهد الشطحي بأكمله، والكتاب يعد وثيقة هامة لم تنشر من قبل تشكل حلقة جديدة في النص الصوفي، ستسهم دون شك في توسيع الدرس الصوفي عموماً، واللغة الصوفية.

أبو يزيد البسطامي
المجموعة الصوفية الكاملة
ويليها كتاب تأويل الشطح
تحقيق وتقديم
قاسم محمد عباس

مجيد جاسم خيون... الشاعر والإنسان

> في العدد 96 من مجلة (رسالة العراق) الصادر بتاريخ 2003 كتب الصديق العزيز الدكتور رشيد الخيون كلمة أثار فيها شجوني وذكرياتي عن الشاعر والإنسان (مجيد جاسم الخيون).
> إن في ذاكرتي عن الراحل الكثير من الذكريات العبقة والأيام التي لن أنساها وأنا أجالس هذا الرمز العراقي والمناضل الوطني الابن البار لمدينة الجبايش الصامدة والعصية دوماً على الطغاة والسلطات الرجعية والبوليسية.. مجيد جاسم الخيون.

زهير كاظم عبود

تعرفت على الشاعر مجيد جاسم الخيون من خلال مراسلتي لجريدة (كل شيء) الأسبوعية التي كان يحررها المرحوم عبد المنعم الجادر في العام 1965، وفي الصفحة المخصصة للشعر الشعبي، حيث كنت أبعث له بمقالات ومقابلات مع شعراء من أمثال علي جاسم الحمد (أبو قيصر) وحسن الشيخ كاظم السرمد وسعدي الصور وغيرهم.

وقد حقق لي أمنية بزيارته لي في مدينتي الديوانية بعد فصلي من الوظيفة عام 1968 لأسباب سياسية بعد شهر تماماً على انقلاب البعث في يوم 1968/8/17، وكان قد فصل مجيد جاسم الخيون من عمله أيضاً وفقاً لقرار الحكم الصادر بحقه والقاضي بحبسه في سجن الحلة، وبعد أن قضى محكوميته عاد إلى أهله حيث سكن الجبايش دون أن يمتلك داراً لإيواء عائلته ومن ثم أعيد تعيينه بعد العام 1968 في دائرة الماء في الجبايش، وكنا قد التقينا في مدينة البصرة في العام 1967 لقاءات متعددة وطويلة في مكتب المحامي التقدمي (طالب بدر) الذي كان لمجيد الفضل في تعرفي إليه، والذي فتح قلبه قبل مكتبه لنا.

وكان المحامي طالب بدر يرتبط بعلاقة وثيقة وقديمة بالشاعر تمتد من أيام الجبايش والناصرية، وكان يدعونا إلى السهرات الجميلة التي كنا نقضيها سوية على حسابه إذ كنا أنا ومجيد من المفلسين الذين لا يملكون سوى أرواحهم وضمائرهم. لفتت انتباهي القدرة الشعرية التي يتمتع بها (أبو وجدان) والعمق السياسي والمعاني والصور الشعرية وحفظت له قصائده الجميلة والتي يحفظها الكثير من أهل العراق ويرددونها بفرح وبشاعرية لا تخلو منها جلسة الطيبين من أهل العراق.

(طول يا طريج السوق ريت دريولك يعثر
ريت التاير اليفتر فلا يفتر
ياريته بألف بنجر
ولا جابوا امفتش للبطاقة ايكص ولا دفتر)

وحفظت له من القصائد السياسية التي كنت أقرؤها عن ظهر قلب أثناء جلساتنا المتكررة حين يأتي مجيد إلى البصرة حيث إقامتي وعملي ويلتقي بأحد أقربائه من آل خيون وهو ضابط في القوة الجوية وتمت إحالته إلى وظيفة أمين سجل مدني في البصرة لإتهامه بالارتباط بتنظيمات الحزب الشيوعي ويتمتع الشخص المذكور بخلق عالٍ وثقافة متميزة، وقد رحلت العديد من قصائده عن ذاكرتي بحكم الزمن.

وبقي مجيد جاسم الخيون مخلصاً لمبادئه وأفكاره وحبه للحزب والفقراء والمعدمين ينشد لهم قصائده ويوظف قدرته الشعرية والثقافية لقضيتهم، وبعد أن أطبق البعث على مفاصل الحياة في العراق، كبرت همومه مع هموم شعبه ومع سعة عائلته ومضت السنين تركض بنا حيث افترقنا كل يحاول أن يرمم ما فاته من مستقبل وما أحدثته السلطة من تخريب.

وخلال سفرة لي مع العائلة إلى البصرة في خريف العام 1988 أثناء عملي في محكمة الشخاب بعد توقف الحرب التي شنها الطاغية على إيران حدثتني روحي أن اتجه بسيارتي وعائلتي إلى الجبايش حيث يسكن مجيد الخيون، ووصلت الجبايش وتوجهت إلى دائرة الماء في المدينة العبقة بأهلها والبائسة والمنسية من السلطة، واجهتني فتاة سألتها عن أبي وجدان فقالت أنها وجدان وإنها موظفة في دائرة الماء وأن والدها مجيد في الدار حيث أحيل على التقاعد.

كانت الدار من دور الإدارة المحلية القديمة المباعة من قبل الحكومة بالمزايدة العلنية وقد اشتراها مجيد لعائلته وبالرغم من كونها لا تليق بقامة عراقية مثل مجيد إلا أنه وعائلته فرشوا أرواحهم وملأوا علينا لحظات اللقاء القصيرة.

ووجدته ذاك هو مجيد الذي لم تطحنه السنوات ولا غيرته السنين بالرغم من آثار الشيب والتجاعيد التي علت وجهه الجميل، إيمانه بقضية شعبه لم تتغير ولم يزل يحلم بانتصار الخير وفرش لنا روحه وقضينا معه ومع عائلته لحظات لن أنساها ما حييت ومن ثم افترقنا، وبقينا يسأل أحدنا عن الآخر حتى بلغني خبر رحيله بواسطة الصديق العزيز القاضي رشيد الخيون وهو زوج شقيقة الكاتب المبدع الدكتور رشيد الخيون.

كان متيقناً أن الطيبين من أهل العراق لا ينسون رجالهم ورموزهم الطيبة، كان يردد دوماً أن العراق سيحفظ أسماء أولاده الذين ضحوا بقدراتهم وإسهاماتهم وأرواحهم لهذا الشعب المعطاء وكان مجيد جاسم الخيون واحداً من هؤلاء أكمل مشواره ومضى لكنه باقٍ في الذاكرة الوطنية نتغنى بقصائده ونحتفل باسمه ضمن دائرة العطاء العراقي مع أسماء من قدموا لهذا العراق.

وأجد لزاماً على أبناء الجبايش والناصرية ومن بقيت أشعار مجيد ترن في ضميره وذاكرته الطيبة أن نجمع هذه القصائد الجميلة ونعيد نشرها خدمة لمواقف هذا الرجل الذي وهب عمره إلى العراق، كنت قد التقيت بالأستاذ الحقوقي قيس الجواد وهو من الحقوقيين الطيبين المخلصين لقضية شعبهم الذين يحفظون شعر مجيد الخيون ويتمتع بذاكرة طرية وقد أوعدني أن يرسل بعض قصائده ولكن يبدو أن الأحداث وزحمة العمل ومشاغل الدنيا وما صار إليه الحال في العراق حالت دون ذلك آمل أن يتذكرني ويتذكر مجيد الخيون.

وقد أثر مجيد الخيون ضمن تأثير الشعر الشعبي الذي انتصر لقضية الشعب ضد سلطة صدام، وشخص الشعر الشعبي من خلال قامات الشعراء الشعبيين الذين تغنوا بالإنسان وبالنضال من أجل الحرية وبالحقوق والأعراف الجميلة والقيم ورسموا لنا صوراً ولوحات إنسانية لم تزل باقية في الموروث الشعبي العراقي وتعتبر جزءاً من كفاح الشعب العراقي ضد كل سلطات القمع والتسلط والدكتاتورية.

كلي ثقة أن جمعية الشعراء الشعبيين ستلتفت إلى تكريم مجيد الخيون إنساناً وشاعراً ومناضلاً قارع الطغيان وواجه السلطة الدكتاتورية ورحل عنا قبل أن يشهد الخلاص من سلطة الطاغية الذي دمر الإنسان والطبيعة في العراق.

الاستعداد لتدوين الموضوعة استنطاق الذاكرة والورقة

نعيم عبد مهلهل

الدخول في الجديد، هو أولاً الدخول إلى الحذر. والكتابة هي تمرين للروح والجسد معاً. وهي تفعيل الرغبة وتحويلها إلى منجز، ولكي تمتهن في الكتابة صناعة الرغبات المدهشة عليك أن تتمكن من إظهار المخفي من بين طيات الثوب الذي ترتديه الذاكرة وهو حتماً ليس مثل ثوب الامبراطور الذي من خلاله نرى كل شيء، لأن ثوب الذاكرة هو ليس بنسيج لعرض الفضيحة كما عند الإمبراطور، بل هو لملمة هذه الفضيحة وإظهارها بالصورة التي لا تعتمد على كشف السر بقدر ما تكون سر آخر يضاف إلى مجموعة أسرار المرء والتي تظهر لنا بأردية مختلفة وعلينا أن ندرك نحن القراء سر الفصال ونوع القماش والوقت المستغرق في الخياطة ومسحات الجمال الذي يعكسه هذا الثوب على مرتديه.

الكتابة هي تفعيل الواقع والبحث عن المكامن الخفية في الداخل، وهي مثل طقوس العبادات البوذية ومنها اليوغا تحتاج إلى تحضير روحي وبدني، وتلك التحضيرات قد لا ترتهن بمواقيت معينة، فالأمر قد يأتي فجأة ولكن البعض رتب حاله ليكون إبداعه مرتهناً بمواقيت يومية وطقوس احتساء القهوة والشاي، أو بعد مقابلة الناشر أو الضيوف. آخر يكتب في الصباح فقط. لكن الليل عند الأكثرية يكاد أن يكون جامعاً للحظة الإبداعية. وثمة أكثر من مؤلف اعتمد على السؤال التالي لمجموعة من الكتاب المتميزين. متى تكتب؟ فكانت الردود تظهر تمايزاً كبيراً بين إجابة وأخرى. منها ما هو غريب وطريف. ومنها ما يشابه طقوسك تماماً، وفي الحالتين فإن أي طقس يمكن أن نمارس إبداعنا فيه هو حق طبيعي للكاتب نفسه، حتى لو تطلب عند البعض الجلوس في فرن الصمون وكتابة الشعر. والموضوعة التي ندونها هي بعض من شجون الكتابة أياً كان تخصصها، وهي إن أتت إنما تأتي حسب ظروف الكاتب، إذ يتعلق الأمر بالحالة النفسية أو الذهنية أو المادية أو الوظيفية، وهناك الكثير من مسببات التدوين، ولكنها في النهاية تتحد مع رغبة المدون بأحداث إنجاز ما أياً كان غرضه وطبيعته. والموضوعة تخضع لمفاهيم كونية تتعدى الهاجس الأرضي فهي تشتغل على نافذتين، الواقعي والتخيل، وبينهما، الكثير من الاشتغالات يتعلق بفهم الوعي لدى الذات الكاتبة وإنها في ظل هاتين النافذتين تستطيع أن تنجز عملاً وأن تتهيأ لكي تعتبر هذا العمل أرثاً يخصها ويشار إليها من خلاله. ولكن التدوينات الوظيفية لا تمت لهذا الوعي بصلة.

في الأزل الذي جئنا منه، كان التدوين الأول عبارة عن خاطرة تمرق سريعاً، ولكي نلقي القبض عليها من الفرار إلى النسيان كنا ندونها بأي شكل تقرره بدائيتنا، نرسمها، نرمز إليها، نعكسها كفعل بخطوط ما، المهم ثمة تعبير يأتي عن طريق حركة ما، شفاهية كانت، أم بواسطة الأصابع، ومتى اكتمل الوعي عرف الإنسان كيف يخلد موضوعته التي تأتي إليه من غير موعد سابق، وربما إلهام الشعر هو الذي دفعه للاستعجال ليكتشف الكتابة، ومعها بدأ شكل العالم يتغير، ونرى فجر التأريخ بصورة نقرأ فيه الحدث من البساطة الأولى وحتى زمن مايكروسوفت.

تتشكل الموضوعة عند الكاتب بميكانيكية تكاد أن تكون موقوتة للحظتها، رغم أن زمنها لم يكن معلوماً في الكثير من الأحيان. وفرانسواز ساغان تقول: أكتب رواياتي بعد استيقاظ صباحي هادئ. فيما لا يرتهن طقس الكتابة عند ماركيز بحدث مثل هذا، أن رواياته تأتي من حدث يجده ربما في ريبورتاج صحفي بحكم مهنته، ويقيم عليه الطقوس التي يريدها ويكتب. طاغور شاعر الهند الكبير يقول: الشعر يأتيني من تأمل الطبيعة وعطر الروح الإنسانية. الجميع لديهم اختلاف في لحظة الشروع بممارسة لهم الروحي، ويبدو أن جوب برنادشو لواحدة من العجائز الارستقراطيات رداً على سؤالها له: متى تكتب يا سيد برنادشو: أجاب برنادشو: اكتب يا سيدتي عندما يكون ظلك الثقيل بعيداً عني!. الجواب هنا جزء من حقيقة اللحظة التي نريدها كي نكتب. ولكن في الجمع وتصوراته عندما نريدها كي نكتب. ولكن في الجمع وتصوراته عندما نريد أن نبدع موضوعة علينا أن نكون وحدنا. تلك الوحدة التي قال عنها كافكا: هي نتاج كلما كتبت.

ولأني مع الورقة الآن، أشد خاصرتي بحزام ناسف من الكلمات لأفجر رغبتي لهاجس ما أراه لا يطاوعني عندما أريده أن يأتي بولادة طبيعية. في العمل الإبداعي: لابد من عملية قيصرية. فلكي تنشأ موضوعة فالأمر لن يكون سهلاً أبداً تحتاج إلى رؤى وألم وسعادات وشظايا ورتب جيد وامرأة جميلة وقراءات كثيرة. تحتاج إلى ظل يكون بارداً في الصيف، ودافئاً في الشتاء وفي كل فصول الكتابة ينبغي أن تجلس أمامك وردة بلون تحبه أنت حتى لو في الخيال، فبدون هذا الكائن الجمالي الصغير لن نقدر أبداً أن نكتشف أحلامنا التي تنام فينا ونحن لا نعلم.

يرى البعض في التدوين: أنه لحظة نتفوق فيها على وجودنا. وربما هم لا يقصدون الوجود السامي الذي خلقه الله لتعيش فيه جميع مخلوقاته. أنهم يقصدون وجود الفرد في رتابته الحياتية المصممة مع عقارب الساعة. وقت للمهنة، وقت للأكل، وقت لقراءة الصحيفة، آخر لممارسة الحب، أو الذهاب إلى المقهى.

ووفق هذا المجال ومعه اشتغالات أخرى لا نملك حدود المساحتها فهي ترتهن بواقعيات الحياة ومثالياتها فتولد موضوعاتنا وتتمايز في جودتها وقدرتها على الصمود في ذاكرة الآخرين ومؤثرتها. وهكذا تصبح المدونة بالنسبة للكاتب مثل نتاج يبغي من وراءه كسباً ما لكنها قبل كل شيء وليدة موهبة كما عند الشاعر أو الرسام أو الروائي أو المؤلف الموسيقي.. الخ.. وتتعدد الرهانات الروحية والنفسية بالنسبة للكاتب على جودة موضوعته، وحالما تخضع للنقد بأنواعه الشفاهي والمدون وردود الأفعال يستطيع المدون أن يكتشف مدى جودة ما كتب، وهل حققت الموضوعة رسالتها أياً كان غرضها. فالأمر في التدوين يعتمد على تطويع الفكرة وغايتها في سياق الحكي والمروي نثراً أو شعراً. وأحياناً يتحول هذا الحكي الصادر من قلم الكاتب وفكره إلى نشاءات متنوعة تخدم الغرض الذي كتبت من أجله. وإذا أردنا أن نعمم هذا الهاجس على كونية وجودنا فالعالم كما في سفر التكوين خلق بكلمة. وأول آيات الذكر الحكيم ارتهنت بالقراءة والقلم.

لهذا سأكون الآن بعد الذي دونته أعلاه بقصدية كشف رؤى الكتابة وهواجسها أن أجلس بأصابعي على سجادة الورق وانتبه إلى وجودي كما المتأمل لصوفية أحلامه في سوق الصفارين. فالطرق لا يهمني ما دمت جالساً في مؤانسة مع ذاكرتي أو كما في واحدة من الصور الشعرية الرائعة لسان جون بيرس والقائلة: (جالس في صداقة مع ركبتي) أي أن الآخر الكوني لا يهمه الآن بقدر تلك الهادئة الجميلة مع بضع من الجسد، فربما يجد الشاعر فيه تحقيقاً الرغبة لا يكتشفها بكتاب فلسفي أو بعيون امرأة جميلة.

إن الكتابة هي الوحي الذي يولد من داخل أعماقنا برغم أن مؤثراته تأتي من الخارج في أغلب الأحيان، هذا الوحي المسلط علينا بإيحاء من الوعي واللاوعي لما نقوله يستطيع أن يصنع لديمومتنا بقاءً يتوارثه الأبناء والفيلسوف فيثاغورس يقول: جعلني المثلث أعيش إلى الأبد. وكذلك فعلت الحرب والسلام مع تولستوي، وأنشودة المطر مع السياب، وأوراق العشب مع وتمان، وأولاد حارتنا مع نجيب محفوظ، إلى آخر القائمة التي قد لا تنتهي من العد أن أردت أن تحصي من جعلتهم الكلمة ملوكاً على الأزمنة.

وأني لا زلت أنام كل ليلة على مقطع مؤثر من الهايكو الياباني ذي الأذرع القصيرة قاله شاعر لم يعرف من هو إلى اليوم، هذا المقطع الشعري يقول:

أتمنى من كل قلبي، كي أملك أصابع
القمر
لأنظم القصيدة التي أريدها..

نحن جميعاً نتمنى أن نملك أصابع القمر لنكتب الهاجس الذي يتمنى أي واحد فينا كتابته لكنه لم يفعل حد هذه اللحظة. لأن الذي نتمناه سيكون غائباً دائماً، ونحن في مثل هذا الموقف كسندباد مع كل عودة ثمة إحساس بأن المكتشف لم يظهر بعد رغم أن هذا البصري رأى واق واق، ومارد القمقم، وأقزام الجزر البعيدة.

إن الوجود بأزلية تكوينه عبارة عن بساط شاسع لذيات يدعونا إلى السير عليه بعد كل يوم نعيشه، وفي الليل يطلب منا مراجعات ما حدث.

الشاعر يتكلم شعراً.

الجائع يتكلم خبزاً، المظلوم شكوى، الغني إحصاءات عن الربح والخسارة، الملوك عن مراسيم التشريفات وترميم التيجان بالجواهر الجديدة، والعنادل تتحدث عن حزنها وهي ترى أطفال الجيران يلهون بالأرجوحة. الكل يدون بطريقته، لأن بساطاً مثل هذا يوفر لنا ملايين الموضوعات.

لكن التعبير عنها يتم بأكثر من طريقة، وأجملها تلك التي ترتهن بالورقة والحس العالي. ولأنك تشعر أنك تمتلك مثل هذا، غلبت في جسدك متاهات الروح وقدتها إلى الزاوية التي تحب أن تكون فيها وقلت لها اكتبي: وكأنك تعيد في نزعتك الليلة إلى أحدث مضاجعة الكلمات، تريد أن توصل السر بالسرور، والجامعة بالدامعة، والكلام بالسهام. ومتى تحس بأن القلب جرح بنبلة الكلمة أغمضت عينيك إلى حلم آخر.

مستنداً كما متعبي قوافل الحجيج في السفر القديم حين ترفض الجمال حملهم على ظهورها، متذكر أقول أعرابي على شاكلة هذا المشهد: أنا ذاهب إلى ربي، وسأصل، لأنه الآن سيضع لي ألف قدم أسير بها.

كذا أحلامك أيها الطيب، لأنها ذاهبة إلى النقاء الذي تتمنى، سيضع لك الرب ألف قلم لتكتب فيه، وسيعوضك ذلك عن أصابع القمر التي تمناها الشاعر الياباني المجهول.